مجلة جامعة الملك عبدالعزيز: الآداب والعلوم الانسانية، م٢٧ع٣ ص ص: ١- ٢٥ (٢٠١٨م)
DOI:10.4197/Art.27-3.1

الــدين والعقــل

الدكتور سعيد بن أحمد الأفندي
أستاذ الفلسفة والمذاهب الفكرية المشارك بقسم الدراسات الإسلامية ،
بكلية الآداب والعلوم الإنسانية عميد كلية الدراسات العليا التربوية المشرف
على كرسي الأمير نايف بن عبدالعزيز للقيم الأخلاقية
جامعة الملك عبدالعزيز

مستخلص. الدين والعقل هل يلتقي الدين مع العقل أم أنهما ضدان لا بمكن أن يلتقيان؟ وكيف كانت العلاقة بينهما عبر العصور؟ يحاول البحث الذي بين أيدينا الإجابة عن تلك التساؤلات، ورصد تاريخ العلاقة التي مرت بحالات من الاشتباك والتجاذب والصراعات والهدن وفترات من التقارب والانسجام. ولابد لنا قبل استعراض تاريخ العلاقة بين الإيمان والعقل من تحديد مفهوم العقل. فالعقل هو ملكة يناط بها الوازع الأخلاقي. فعقل، تعني أمسك نفسه وردها عن هواها.. أما أشمل تعريف للعقل عند الفلاسفة فهو مجموع الوظائف النفسية المتعلقة بتحصيل المعرفة، كالإدراك والتداعي، والذاكرة، والتخيل، والحكم، والاستدلال. أما عن علاقة العقل بالدين تاريخياً فقد مرت بحالات من المد والجزر والاشتباك والتقارب. ففي الحضارة اليونانية وجدنا تحرر العقل من ضغط العقيدة الدينية ونفوذ رجالها. أما في العصر الوسيط (عصر القديسين) فلم يكن هناك نزاع بين العقل والإيمان، بل ساد اتفاق تام بينهما.
وبدأ الاضطهاد الديني في أوربا حين خرجت السياسة الرومانية على شريعتها. وساد خلال القرنين الأولين اضطهاد لأتباع الدين الجديد. ولم تتوقف حملات التنكيل إلا بعد تبني القياصرة لذلك الدين. وغيَّرت الكنيسة سلوكها بعد أن ظفرت بالسلطان. وأحكمت قبضتها على المشككين والمارقين والملحدين (مبادئ أوغسطين). ومالبثت أن دبت اليقظة في التيار العقلي فانقض على خصومه الكهنوت. وشهدنا صراعات دامية أعدم فيها الكثيرون من رواد الفكر الحديث. وفي القرن الثالث عشر بدأت الهوة تتسع بين العقل واللاهوت واستمرت الصراعات وبدأ الانفصال التام بينهما برفض كل ماجاء به الوحي لعدم قابليته للبرهان العقلي. واستمر النزاع بين الإيمان والعقل في القرون اللاحقة إلى أن ظهرت النظريات العلمية التي برهنت خطل المفاهيم الدينية القديمة عن العالم كنظرية غاليله ونيوتن وداروِن وكبلر ولابلاش وغيرها. وتم نزع سلطة الكهنوت سياسياً، وإبعاد الدين عن شئون الحياة العامة.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المسلمين، سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ...

فإن استقراء تاريخ الصراع بين العقل والإيمان يقول: إنه لا يعرف صراعاً قام بينهما، وأدى إلى استعباد العقل، إلا إذا اجتمع شرطان: يدور اجتماعهماً مع الاضطهاد وجوداً وعدمًا...

أولهما: وجود عقل قوي جريء يقوى على اقتحام "المنطقة الحرام"، وارتياد آفاقها، والانتهاء إلى كشف مجهول أو إنكار مألوف، غير مبالٍ بالسلطات التي تهدده. وثانيهما: أن تتهيأ للمتزمتين من رجال الدين سلطة دنيوية تمكنهم من اضطهاد من يخالفهم الرأي، فإن أغوتهم السلطة، قنعوا بالغيبة، وانتقموا بالنميمة، أو لاذوا بالعقل، وجاروا خصومهم في الاعتصام بشريعته، فلا يلبث منطقه حتى يثير الشقاق في معسكرهم، ويفت في عضد دعوتهم... وبغير اجتماع هذين العاملين لا يقوم بين العقل والإيمان صراع، تلك سنة يشهد بها تاريخ الفكر منذ أقدم العصور.

وفي هذا البحث سأتحدث عن هذا الموضوع في ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : معنى العقل

أولاً :عند علماء اللغة.

ثانياً: العقل في القرآن الكريم والسنة النبوية

ثالثاً: العقل في الاصطلاح .

والمبحث الثاني : علاقة الدين بالعقل تاريخياً

أولاً : علاقة الدين بالعقل عند اليونان.

ثانياً: علاقة الدين بالعقل في العصر الوسيط

ثالثاً : علاقة الدين بالعقل في الفلسفة الحديثة.

والمبحث الثالث : الإسلام والعقل.

المبحث الأول: معنى العقل

أولاً : عند علماء اللغة:

ورد لفظ العقل عند علماء اللغة بعدة معان، منها:

جاء في " لسان العرب " أن العقل مصدر عقل هو الحجر، الربط، والملجأ، والحصن.

قال ابن الأنباري: رجل عاقل أي جامع لأمره ورأيه مأخوذ من عقلتُ البعير إذا جمعتُ قوائمه. وقيل: العاقل هو الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها، وقيل: العقل هو التثبت في الأمور، وهو الذي يعقل صاحبه عن التورط في المهالك، والمعقول هو ما تفعله بقلبك، فالعقل بهذه المثابة هو القلب، والقلب هو العقل.

كما قيل: إن العقل هو التمييز، وبه يفترق الإنسان عن سائر الأحياء، وبه يفهم الإنسان ما لا يفهمه الحيوان.

وقيل: المرأة تعاقل الرجل، أي تساويه في الدية، والعقيلة :هي المرأة الكريمة، وعقيلة البحر: هي الدرة. ولذلك قيل : عقيلة القوم: سيدهم(١) .

وجاء في " القاموس المحيط ": أن العقل هو الفهم، يقال: عقل الشئ فهمه، فهو معقول، أي مفهوم. والعقل نور روحاني تدرك به النفس الأمور الضرورية والفطرية، وابتداء وجوده عند اجتنان الولد في الرحم، ثم لا يزال ينمو إلى أن يكمل عند البلوغ" (٢) .

(١) انظر: ابن منظور: لسان العرب. م٢. ص (٨٤٥). ط- خياط.
(٢)الفيروز آبادي: القاموس المحيط.

وجاء في " تاج العروس ": أن العقل هو العلم، الحجر، النهية، وهو قوة، وغريزة. والعقل هو القوة المهيأة لقبول العلم، وبه يستنبط العاقل الأمور "[١] .

وجاء في: الصحاح ": أن العقل هو: الحجر والنهي. ورجل عاقل، وعقول، وقد عقل يعقل عقلاً ومعقولاً، وهو مصدر. وقال سيبويه: هو صفة، لأن المصدر لا يأتي على وزن مفعول البتة. ثم قال: والعقل: الدية، لأن إبل الدية كانت تعقل بفناء ولي المقتول" [٢].

والخلاصة: أن العقل ملكة يناط بها الوازع الأخلاقي، أو المنع عما هو محظور ومنكور. ومن هنا كان اشتقاقه من مادة عقل التي يؤخذ منها العقال [٣]

ثانياً :العقل في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة:

لم يرد لفظ العقل في القرآن الكريم، وإنما الذي ورد مادة العقل ومشتقاته كلفظ يعقلون، تعقلون، أفلا تعقلون، ما عقلوه، لو كنا نسمع أو نعقل، وما يعقلها إلا العالمون... وفي الحديث النبوي الشريف وردت ألفاظ: العقل، عقل، عقله.. وكذلك وردت ألفاظ مشتقات العقل في صيغ: عقل، يعقل، عقلت، عقلناها، وليعقل قلبك، لتعقل، فاعقل، فاعقلوا... ومن تلك الأقوال المأثورة:

١- " اعقلوا والعقل نعمة..." والأمر بالعقل هنا يفيد الفهم، فهو نعمة؛ لأن من فهم فقد عقل، والفاهم مهدي لا محالة لأن عقله أوصله إلى الحقيقة.

٢- وروى البخاري عن علي رضوان الله عليه ساعة سأله "أبو جحيفة": هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة، قال: قلت وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل. وهو يقصد به الفهم المتعلق بأمور الشرع والدين.

٣- "العقل: فهم العقل، ونور الحكمة..." النور من متعلقات الفهم والعقل، أما الحكمة فهي تمام العقل، وأصلها من الحَكَمَة بفتح حروفها الثلاث، وهي الحديدة التي تعترض لجام الفرس كيلا تجمح، فنقلت إلى العقل الذي يمنع السالك من الضلال.

٤- "الحجامة على الريق تزيد في العقل، وفي الحفظ. " تفيد كلمة العقل هنا ما اتصل ببناء الجسد فسيولوجياً، من حيث إفادة الجسم نشاطاً في المخ، والأعصاب، وسائر أجهزة الكيان البشري.

٥- "من الناس من لا عقول لهم..." محمول اللفظ هنا على ضلال العقول، فهؤلاء لديهم كل وسائل الفهم والعقل، ولكنهم ضلوا ضلال من لا عقل له، وذلك بتعطيل الفهم، والهداية.

---

(١)الزبيدي: تاج العروس ج ص (٢٥/٨).
(٢)الجوهري: الصحاح ج ص (١٧٦٩/٥).
(٣) انظر: عباس العقاد: التفكير فريضة إسلامية. دار الكتاب العربي. بيروت ١٩٦٩ ص(٨).

ثالثاً: العقل في الاصطلاح :

١- العقل عند المتكلمين:

يقول الرازي: "العقل غريزة يتبعها العلم بالضروريات عند سلامة الآلات، والنائم لم يزل عقله وإن لم يكن عالماً "[١].

وقال "أبو المعالي" في الإرشاد: "العقل هو علوم ضرورية بها يتميز العاقل عن غيره، وهو قوة للنفس بها تستعد للعلوم والإدراكات، وهو المعني بقولهم غريزة يتبعها العلم بالضروريات، عند سلامة الآلات".

وقال " الجاحظ " :"سمي العقل عقلًا لأنه يزمُّ اللسان ويخطمه عن أن يمضي فرطًا في سبيل الجهل والخطأ أو المضرة كما يعقل البعير". [٢]

وقال بعض المتكلمين: "العقل هو بعض العلوم الضرورية، كالعلم بجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات، كالعلم بأن الاثنين أكثر من واحد، وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد" [٣].

٢- العقل عند الفلاسفة:

العقل عند الفلاسفة يطلق على عدة معان، أهمها:

١- أن العقل "جوهر بسيط مدرك للأشياء بحقائقها".

(١) المواقف في علم الكلام (١٤٦) – بيروت.
(٢) عباس العقاد. التفكير ضرورة إسلامية ص (٨).
(٣) الحارث بن أسد المحاسبي وأبي حامد محمد بن محمد الغزالي. شرف العقل وماهيته. تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا ص(٥٩). دار الكتب العلمية. بيروت – لبنان.

٢- أن العقل قوة النفس التي بها يحصل تصور المعاني، وتأليف القضايا والأقيسة. والفرق بينه وبين الحس، أن العقل يستطيع أن يجرد الصورة عن المادة، وعن لواحق المادة، أما الحس فإنه لا يستطيع ذلك. فالعقل إذن قوة تجريد، تنتزع الصور من المادة، وتدرك المعاني الكلية.

٣- العقل هو "قوة الإصابة في الحكم"، أي تمييز الحق من الباطل، والخير من الشر، والحسن من القبيح.

٤- العقل هو قوة طبيعية للنفس متهيئة لتحصيل المعرفة العلمية.

٥- العقل هو مجموع المبادئ القبلية "Apriori" المنظمة للمعرفة كمبدأ عدم التناقض، ومبدأ السببية ومبدأ الغائية. وتتميز هذه المبادئ بضرورتها، وكليتها، واستقلالها عن التجربة.

٦- العقل هو الملكة التي يحصل بها للنفس علم مباشر بالحقائق المطلقة.

٧- العقل هو مجموع الوظائف النفسية المتعلقة بتحصيل المعرفة، كالإدراك، والتداعي، والذاكرة، والتخيل، والحكم، والاستدلال إلخ... ويقابله في الفرنسية لفظ "Intelligence"، ويرادفه الذهن، والفهم، وهو مضاد للحدس والغريزة. أما ملكة الفهم السريع فتسمى ذكاء [٤].

(١) انظر: المعجم الفلسفي: د/جميل صليبا ج .ص (٢/٨٤-٨٩)

٣- العقل عند الصوفية:

يقول "الحارث المحاسبي": العقل هو غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية، وكأنه نور يقذف في القلب، به يستعد لإدراك الأشياء [١].

- والعقل عند " الإمام الغزالي ": " أنموذج من نور الله " [٢].

4- والعقل عند الجمهور يطلق على ثلاثة أوجه:

الأول: أنه هيئة محمودة للإنسان في كلامه واختياره، وحركاته وسكناته.

والثاني: أنه معانٍ مجتمعة في الذهن، تكون مقدمات، تستنبط بها الأغراض والمصالح.

والثالث: أنه قوة تدرك صفات الأشياء من حسنها وقبحها، وكمالها، ونقصانها[٣].

والعقل إذا كان بقوة الغريزة والعلوم الضرورية فهو مطبوع، وبهما تستفاد التجارب، وتعرف عواقب الأمور، وتمنع الشهوة الداعية إلى اللذة، فهو مكتسب. ولذلك قال الإمام " علي " رضي الله عنه :

رأيت العقل عقلين***فمطبوعٌ ومسموعُ

ولا ينفع مسموعٌ*** إذا لم يك مطبوعُ

كما لا تنفع الشمس***وضوء العين ممنوعُ [٤].

المبحث الثاني :علاقة الدين بالعقل تاريخيًا

أولاً : علاقة الدين بالعقل عند اليونان:

لقد تعرض العقل البشري في حضارة الشرق القديم لضغط العقائد الدينية، واستعباد الأغراض العملية. ثم تحرر من جميع هذه القيود على يد اليونان، وعاش في ظلهم طليقاً لخدمة "الحقيقة"، منساقاً ببواعث اللذة العقلية وحدها. فكان اليونان بهذا أول من "أبدع" حرية التفكير والبحث في تاريخ الإنسانية كلها.

ويرى "سانت هيلير" أن السبب في تحرر العقل من ضغط العقيدة الدينية ونفوذ رجالها، أن فلسفتهم كانت موضوعة في وضع استثنائي، ولم يكن أمامها ديانة مبنية على كتب مقدسة.وقد كان المرتل " أرفي ولينوس "، وسائر المرتلين الأقدمين الذين كانوا ينشدون آيات الأسرار الأولى، كلهم، ما كان يتكلم إلا باسمه هو، دون أن يسند ما يقوله إلى الإله، ولما كان الإشراك بالله متغير الصور، منثوراً في البلاد، لا ينتظمها على حال واحد، لم يستطع الوصول إلى تأليف جسم من المذاهب قد يصير ديانة ذات قوام خاص. فلم يكن للكهنة نقابة قوية ذات سلطان، وكان الناس يحترمونهم، ولكن لا يطيعونهم، ولم تكن الروابط بين الهيأتين إلا مفككة القوى؛ لأنهما إنما تبحث عن معتقدات عامة، يغير من عرفها في كل جهة أساطير محلية لا نهاية لها، وعن بعض احتفالات عامة لم تكن إلزامية، وهواتف يستشيرها الناس وقتما يريدون، وألعاب عمومية. والكتاب

---

(٢) الحارث المحاسبي: المسائل في أعمال القلوب والجوارح والمكاسب والعقل. تحقيق: عبدالقادر أحمد عطا ص (٢٣٧). عالم الكتب.
(٣) مشكاة الأنوار. الإمام الغزالي. ص(٤٤). القاهرة ١٩٦٤م.
(٤) انظر: د/ جميل صليبا: المعجم الفلسفي ج. ص (٨٤/٢) .
(١) انظر: الحارث المحاسبي: شرف العقل وماهيته. تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا ص(٦٠). دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان. ط ١ - ١٩٨٦ م.

الوحيد الذي أخذ بمجامع قلوب الإغريق إنما هو قصيدة حماسية.

فالواقع أن الفلسفة كانت هي وحدها دين الهليين "اليونان" (١).

وهذا الرأي أيده " لفنجستون " في حديثه عن الحرية، حيث يردُّ عبقرية الإغريق إلى الحريتين، الحرية الدينية، والحرية السياسية معاً، ويسوق المثال بأفلاطون الذي يناقش في جمهوريته أعمق المشاكل السياسية في حرية وحذق وعمق لم يبزه فيها عصر تلاه، ومثل هذا يقال في غيره من المفكرين. ومردُّ هذه الظاهرة عند اليونان إلى ما يسميه "جوته Goethe" بصدق، النظرة التي ترجع إلى التحرر المطلق من القيود اللاهوتية والأخلاقية والسياسية (٢).

إن اليوناني يلجأ إلى منطق عقله، ودقة حسه في التمييز بين الصواب والخطأ، والخير والشر، والحق والباطل، والجمال والقبح، والكمال والنقص، وكان عقله المصنع الذي صيغت فيه عقائده، فكان ينكر من تقاليده كل ما لا يتماشى مع منطق عقله.

يقول "لفنجستون": إن اليونان إذا كانوا قد تحرروا من ضغط الدين، وقيود تقاليده، فقد كان هذا شأنهم في أمور السياسة كذلك، ومع أن الحكومة قد أثقلت عاتق مواطنيها بالواجبات، فإن الفرد لم تتلاش

(٢) انظر: برتلمي سانت هيلير: مقدمة كتاب الكون والفساد لأرسطو. ترجمة: أحمد لطفي السيد. ص (٨٨).

(٢) انظر: د/ توفيق الطويل: قصة الصراع بين الدين والفلسفة. ص (٦٤، ٦٥).

شخصيته أبداً؛ بل احتفظ بفرديته وصانها من التضحية لمصلحة المجموع...

والحرية المطلقة عند اليونان لم تمنع من اضطهاد "سقراط" و "انكساجوراس" و "برتاجوراس"... وغيرهم، ولكن مرد هذا الاضطهاد إلى أسباب شخصية أو سياسية (٣).

– ويرى "لفنجستون" أن أسباب حرية الفكر عند اليونان كثيرة، أهمها:

ا– أن ديانة الإغريق تذعن لنقد النقاد، ويشهد بهذا موقف هؤلاء من الآلهة، حيث روى "أكسانوفان" عن "هوميروس" و "هزيود" أنهما كانا يعزوان رذائل الإنسان وسوءاته إلى الآلهة، وقد صورا هؤلاء في صورة الإنسان، وأضافا إليهم نقصه؛ بل ألَّهوا كل ما يثير الروع من ضروب الأهواء والدوافع والفضائل والمطالب والأوهام... ألَّه اليوناني كل " مجالات نشاطه " التي تكشفت عن إعجاز: فالموقد الذي أدفأه وأنضج طعامه، والشارع الذي أقيم فيه بيته، والحصان الذي سخره لخدمته، والزوجة التي بنى بها، والطفل الذي أنجبه، والطاعون الذي اغتاله أو برئ من شره... كل هذا قد أوحى إليه بإله. ومثل هذا يقال في " القوى المجردة "، من خوف وثورة وسكر ورياضة وديمقراطية وحسد وجنون واضطهاد ونوم وجوع ونحوه. تجسدت هذه القوى، وكانت في بعض الحالات موضع عبادة، فلم يكن عند اليونان

(٣) انظر: المرجع السابق. ص (٦٧).

إله واحد يتحكم في الناس ويستبد بهم؛ بل كانت آلهتهم من صنع أيديهم، من وحي خيالهم. ومن الطبيعي أن يكون الناس أحراراً مع مخلوقاتهم، إنهم هم الذين خلقوا الآلهة، وليست الآلهة هي التي خلقتهم! لقد كان الإله يشبه الحاكم الدستوري الذي يؤكد رعاياه على الدوام أنهم هم الذين رفعوه إلى عرشه (١).

ب – أن اليونان ليس لهم كتاب مقدس أوحت به سلطة إلهية.

والخلاصة:

أن العقل في الفلسفة اليونانية كان جريئاً حراً طليقاً من كل قيد، فلم يكن تحت وصاية دين منزَّل، ولم يواجه نظاماً كهنوتياً يمكِّن قساوسته من قمع الفكر الحر. وبذلك كان اليوناني خالياً من نزاع يقع بين العقل والإيمان(٢).

ثانياً: علاقة الدين بالعقل في العصر الوسيط:

١- عصر آباء الكنيسة (القديسين):

في هذا العصر لا يوجد نزاع بين العقل والإيمان، بل يوجد اتفاق تام بينهما؛ لأن الحق لا يتعدد، والفلسفة ما هي إلا البحث عن الحق، والحق هو الدين، لهذا نجد عند الآباء الأولين أن كلمة "لاهوت" وكلمة "فلسفة" أو "حكمة" تدلان على أمر واحد، كما هو مشاهد عند "يوستينوس St-Jusrin" (٣).

إن الاضطهاد الديني في أوروبا قد بدأ يوم خرجت السياسة الرومانية على شريعتها، في إطلاق الحرية الدينية لرعاياها، وضنت بالتسامح على الدين المسيحي الجديد منذ ظهوره، فكتب المشتغلون بالفلسفة من آباء الكنيسة في القرن الثاني دفاعات ذادوا بها عن دينهم، وردوا فيها على حملات الوثنيين من خصومهم، واستغلوا فيها أساليب الجدل الفلسفي الذي أخذوه عن اليونان، وكانوا ينطوون على كراهية عميقة للمدنية الرومانية التي كانوا يعيشون في ظلها، كما يشهد بهذا معاصرهم Tatian (٤).

وكان المسيحيون في إبان القرنين الأولين طائفة منبوذة، أعوزتها فيهما السلطة، وأحاطها مقت المجتمع، فأعلنوا مبدأ التسامح، وصرحوا بأن المعتقد الديني أمر اختياري لا سبيل إلى إكراه الناس عليه. فلما تمكن المسيحيون من دينهم، واستبد بقلوب الناس، وأيدته الدولة بقوتها، تنكروا لمبدأ التسامح، وفرضوا رقابتهم على آراء الناس في الكون وظواهره وأسراره، ثم شرعوا في وضع سياسة محددة لقهر الفكر، وكبح العقل، وسلَّم الأباطرة والحكومات بهذه النزعة، لأسباب بعضها سياسية.

إن تاريخ المسيحية في قرونها الثلاثة الأولى خلا من كل أثر لاضطهاد رسمي تنزله بخصومها؛ لأن السلطة تعوز رجالها، بل بشَّر آباؤها الأُوَل بمبدأ التسامح. وصرَّح أمثال "أوريجان Origen ٢٥٤ " و

(١) انظر: المرجع السابق. ص (٦٧، ٦٨).
(٢) انظر: المرجع السابق. ص(٢١).
(٢) انظر: عبد الرحمن بدوي: فلسفة العصور الوسطى. ص (١٩١).
=

ط٣. وكالة المطبوعات الكويت. دار القلم - بيروت - لبنان. ١٩٧٩م.
(٣) انظر: في كتابه A Discourse Of the Greeks.

"لاكتانتيوس Lactantius ٣٤٠ " برفضهم لفكرة الاضطهاد.

ومنذ نشأت الحركة الغنوصية تصدى لها بعض آباء الكنيسة، فمنهم من كانوا دارسين للفلسفة الأفلاطونية، ومتعلقين بها، مثل القديس "جوستين السامري ١٦٧" الذي ذهب إلى أنه لا يوجد تعارض بين المسيحية وبين الفلسفة في أكمل صورها، أي عند "أفلاطون"، فكلاهما ينشد خلاص الإنسان وسعادته، ولكن بينما تقف الفلسفة عند المعرفة العقلية النظرية المجردة في اهتدائها إلى وجود الله، وكونه علة لكل شيء، فإن المسيحية تتخطى ذلك وتصل بالإيمان إلى معاينة الله، والاتصال به، وإذن تكون المسيحية هي الفلسفة الكاملة.

ومنهم من دعا إلى الفصل بين العقل والإيمان، ونهى عن التفلسف؛ باعتباره معوِّقاً عن الاعتقاد، كما فعل "ترتليان سنة ٢٢٠م"، وقد بلغ في تحديه للغنوصية والفلاسفة أن قال: " إن موت ابن الله معقول؛ لأنه أمر لا يقبله العقل، وقيامه من بين الموتى ثابت؛ لأنه مستحيل في نظر العقل ".

وقد عارض هذا الاتجاه "كلمنت" الإسكندري، الذي ذهب إلى أن الفلسفة هي الوسيلة اللازمة لتدعيم الدين، بجعل عقائده مؤسسة على الدليل، فالاعتقاد بوجود الله مثلاً ينبغي أن يقوم على الاستدلال، ودليله أن النظام الموجود في العالم يشير بالضرورة إلى وجود منظم هو الله. أما معرفة ماهية الله، وطبيعته، فمما لا يحتاجه العقل، ولا يقدر عليه. ودعا إلى أخلاق شبيهة بأخلاق الصوفية المعاصرة له في الإسكندرية، وهي حب الله، واتِّباع أوامره، لا عن طمع في ثواب، أو رهبة من عقاب؛ بل حباً في السلوك الجميل لذاته لا لغيره (١).

ومنذ انقلب الوضع في الرومان، بعد أن كان آباء الكنيسة المسيحية يتقدمون بالعرائض المتوالية للدفاع عن حق المسيحية في البقاء، والمطالبة بحرية الأديان، أصبحوا في هذا القرن، بعد أن دخل الأباطرة أنفسهم في المسيحية، يحرضون الجماهير ضد كهنة المعابد الوثنية، فيذبحونهم، ويحرقون معابدهم، ومازالت آثار الحرائق ظاهرة في معبد الأقصر وغيره من المعابد.

ثم حرضوا الجماهير ضد بعض الفلاسفة، فأحرقوا "هيباشيا" فيلسوفة الإسكندرية سنة ٤١٥م، ونتج عن هذا الإرهاب ضمور الفلسفة باستمرار، إلى أن أصدر الإمبراطور "جستنيان" سنة ٥٢٩م أمراً بإغلاق المدارس الفلسفية في أثينا، فرحل الفلاسفة بكتبهم إلى الشرق، إلى الرها وحران ونصيبين، وخصوصاً إلى جنديسابور في فارس، حيث وجدوا المسيحيين النساطرة الذين كانوا قد لجأوا إليها منذ سنة ٤٨٩م، فراراً من اضطهاد الملكانين (٢).

– وبهذا نجد أن الكنيسة قد غيرت شريعتها بعد أن ظفرت بالسلطان، ففي مطلع القرن الرابع صدر

---

(١) انظر: د/عبده فراج: معالم الفكر الفلسفي في العصور الوسطى - فلسفة إسلامية ومسيحية. ط١. ص (٢٠، ٢١). مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

(١) انظر: المرجع نفسه. ص (١٨).

مرسوم عام٣١١م يقضي بالتسامح، ثم أصدر "قسطنطين فرمان ميلان"، الذي أعلن فيه نفس المبدأ الذي يقضي بالتسامح، واعتنق المسيحية بعد عشر سنوات من صدور هذا الفرمان – عام ٣٢٣م – فبدأت بهذا القرار الخطير عشرة قرون شداد، استُعبد فيها العقل الأوروبي، ووقف تقدم المعرفة، فسنت القوانين لمحاربة الهرطقة، والتنكيل بدعاتها، في عهد "فالنتنيان الأول Valentinian" في النصف الثاني من القرن الرابع، و"تيودوسيوس الأول Theodosius I" (+٣٩٥م) فاستهدف الملحدون للنفي، وسلبوا حقهم في الوراثة، وتعرضت أملاكهم للمصادرة، وأضحوا عرضة للإعدام في بعض الحالات، وبدأ الإعدام في نهاية هذا القرن (عام٣٨٥م)، عندما أدين الملحد الأسباني "بريسيليان Priscillian"، وأعدم بأمر الإمبراطور "ماكسيموس Maximus"، فأثار إعدامه جدلاً عنيفاً، وغضب لهذا بعض القديسين من أمثال القديس "مارتن" من أهل تور، والقديس " امبروز " رغم نشاطه في قمع عبادة الوثنيين واليهود، واحتج هؤلاء على القساوسة الذين تسببوا في إعدامه، وطالب القديس "Chrysostom" بإباحة حرية الكلام، والإذن للهراطقة بتنظيم مجالسهم، وصرح بأن إعدام الملحد إقرار بارتكاب جريمة لا سبيل إلى غفرانها أو التكفير عنها (١).

وفي مطلع القرن الخامس تمكَّن نظام الاضطهاد على يد القديس " أوغسطين ٤٣٠ "، أوسع آباء الكنيسة نفوذاً، وأعلاهم صوتاً، إذ كادت تجتمع عند شروحه للنصوص المقدسة كلمة الذين عرضوا لتفسيرها بعد، والاستشهاد به كثيراً ما يكون فصل الخطاب، ومحك الصواب، ولأن أقواله قد ارتفعت بعده إلى مرتبة القداسة. بهذه الصولة صاغ "أوغسطين" مبدأ الاضطهاد لهداية الأجيال التالية، وأقامه على أساس من الكتاب المقدس، فاستند إلى كلمات قيل: إن يسوع المسيح قالها في مثل من أمثاله التي كان يسوقها لحوارييه إذ قال: "أجبروهم على اعتناق دينكم" ، ومضت الكنيسة بعد هذا لمحاربة خصومها.

وتمشياً مع هذا المنطق سلم "أوغسطين" بمعاقبة الملحد بالنفي والجلد، وفرض الغرامات، ووضع للكنيسة دستوراً تلتزمه إزاء كل حركة عقلية، فصرح في كتابه "تعليقات على سفر التكوين" بأن ليس في الوسع التسليم برأي لا تؤيده الكتب المقدسة؛ لأن سلطانها أقوى من كل سلطان أمر به العقل البشري، فمضت الكنيسة بعده تعمل جاهدة لقمع الهرطقة وجندلة دعاتها، وكان لموقف هذا القديس أبلغ الآثار في عرقلة النظر العقلي، ووقف التقدم العلمي، ومنذ هذا الوقت أصبح الكتاب المقدس أساس العلم ومصدره (٢).

---

(١) انظر: قصة الصراع بين الدين والفلسفة: د/توفيق الطويل. ص (٩١. ٩٢).

(٢) انظر: المرجع نفسه. ص(٩٢. ٩٣).

وفي إبان هذه الفترة (٤٧٦م) قوض البرابرة الدولة الرومانية الغربية فزادوا الحياة العقلية اضمحلالاً، ومكَّنوا للجهالة، وكادوا يقضون على ما كان معروفاً من تراث اليونان.

وعندما أقبل القرن السادس، كانت الجامعات تشرف على الاحتضار، وكان "جستنيان" يضطهد الوثنية، ويطارد أتباعها، فأصدر أمره عام ٥٢٩م بإغلاق مدارس الفلسفة جميعاً، وتوارت من الوجود جامعة أثينا، وإن بقى تراثها في ذمة التاريخ. وإغلاق هذه المدارس – مع اضمحلالها – دون العمل على إحيائها وإنعاش الدراسات العلمية بها، شاهد ينهض للتدليل على عداء الروح المسيحية للعلم والفلسفة منذ قيام الدين الجديد. ولذا يقول " ولف ": إن موقف المسيحية إزاء العلم والفلسفة كان موقف احتقار صريح [١].

٢- العصر المدرسي:

بعد أن عاش العقل حياة الأمن والهدوء، واستطاب السلامة، واتقى أسباب النزاع قروناً طوالاً، ولما دبت إليه اليقظة، وعاوده النشاط، تأهب في العصر المدرسي لإعلان تمرده، والجهر باستعداده للنزول، فكان هذا بدء عهد جديد، شهد صراعاً دامياً آثماً استشهد فيه الكثيرون من رواد الفكر الحديث، على يد أصحاب السلطة من رجال الكهنوت [٢].

ففي هذا العصر وجد العقل نفسه مغلقاً داخل أسوار العقيدة الدينية "الإيمان"، فكان عليه أن يقتصر على التجوال بين هذه الجدران، ولما بدأ يشعر بشيء من الحرية، كان عليه مع ذلك أن يحدد موقفه من مسألة حق العقل بإزاء النقل، أعني الصلة بين نفسه وبين مضمون الإيمان المفروض عليه.

فحاول العقل أن يؤكد كيانه إزاء هذا المضمون، فبدأ أولاً بالخضوع في شيء من الدهاء، بأن قال: إن الحقيقة هي الحقيقة الإيمانية، غير أن هذه الحقيقة مجملة، فهي في حاجة إلى التفصيل والشرح، وكلاهما يتم عن طريق العقل.

وهذا الموقف نراه واضحاً في القرنين العاشر والحادي عشر عند القديس "أنسلم Anselme"، الذي ينشد من وراء استقلال التفكير أن يتعقل الإيمان، أعني أن يفسره حتى يتعقله، ولهذا كان شعاره: أومنُ لأتعقل Credo ut iutelligam.

و"أبيلارد" في القرن الثاني عشر وقف مثل هذا الموقف، وإن تقدم في سبيل تقرير نصيب العقل، فهو لا يزال يؤمن بأن عقيدة التثليث قابلة لأن يبرهن عليها عقلياً، ولهذا كان يقول: إن الحقيقة الدينية تتفق في كل أجزائها مع ما يقضي به العقل، بيد أننا نجد عنده تقدماً أكثر مما كانت الحال عليه عند "أنسلم"؛ لأن "أبيلارد" قال أيضاً بوجود تعارض بين أقوال اللاهوت بعضها وبعض، وبين أقوال اللاهوت

(١) انظر: المرجع السابق. ص(٩٣، ٩٤).
(٢) انظر: المرجع السابق، ص (٨٨).

وأقوال الفلاسفة، وذلك في منهجه المعروف بمنهج "نعم ولا". Sic et non (١).

وفي القرن الثالث عشر بدأ التمييز بين العقل والإيمان تمييزاً يمضي قدماً لدى كبار الفلاسفة اللاهوتيين، نحو التمييز الواضح البين بين ما للعقل وما للنقل، وهذا التيار يستمر قوياً عند " بونافنتورا "، ثم " توما الأكويني "، ثم " دنس سكوت ". فنرى ميدان النقل الذي يمكن إثباته بالعقل قد انحسر شيئاً فشيئاً وضاق مداه، فتوما أبعد من ميدان البرهان العقلي عدداً وافراً من العقائد الدينية التي ظن أسلافه أن من الممكن إثباتها بطريق العقل، مثل: التثليث، والتجسد، والخلاص. فقال: إنه ليس من الممكن أن يبرهن عليها عقلياً؛ وجاء من بعده "دنس سكوت"، فأنكر إمكان إثبات خلود النفس إثباتاً عقلياً؛ بل إن براهين وجود الله وبيان صفاته لا تقبل كلها أن تكون عقلية، وكل ما يمكن أن يقال عن هذه البراهين هو أنها محتملة وليست قطعية.

وفي القرن الرابع عشر انفصل ميدان العقل عن ميدان الدين انفصالاً يكاد يكون تاماً، بمعنى أن ما يأتي به الوحي قد لا يكون قابلاً للبرهان العقلي، ولا يقضي به العقل ليس من الضروري أن يكون الوحي قد جاء به، وكانت نتيجة هذا كله أن أصبحت مشكلة العقل والنقل مشكلة غير ذات موضوع، وهذا مما كان إيذاناً بقيام الفلسفة الحديثة التي لا تحاول التوفيق بين العقل والنقل؛ بل تدع هذه المشكلة خارج نطاق البحث الفلسفي (٢).

ثالثاً: علاقة الدين بالعقل في عصر النهضة الأوروبية

في عصر النهضة الأوروبية كان الصراع عنيفاً بين الدين والعقل؛ لأن روح النهضة كانت على تنافر ملحوظ مع روح العصر الوسيط، وعلا صوت العقل على الوحي بسبب اكتمال أسباب اليقظة للعقل، والثقة به، حيث استغرقه حب الاستطلاع الحر، وتعطشه للعلم، وحبه للجمال، وسائر ملذات الحياة، وقَوَّى نزوعه إلى تبرير الشهوات، ونبذ العقائد المتعسفة، والخروج على التقاليد المألوفة، والمبادئ المرعية، فأطلق الشهوات من عقالها، وتمرد على تقييد الحرية في مجال الأخلاق والآداب، وفي ميادين العلم والفن والفلسفة جميعاً، وعلا صوت العقل على صوت الوحي، وبهذا كله اتسعت هوة الخلاف بين رجال الدين في العصر الوسيط وإباحية عصر النهضة؛ لأن حركة التحرر من الدين كانت عنيفة. فاضطهد رجال الدين العقل، وناصبوا أهله العداء، فلما عاند العقل وكابر، وطَّنت عزمها على أن تصليه نارها، وانقضَّت عليه بقوات حشدتها لجندلته وافتراس أتباعه، فكانت محاكم التفتيش – التي نشأت قبل ذلك– عنوان هذه الوحشية الآثمة، وطاردت أحرار الفكر في العالم الكاثوليكي طولاً وعرضاً، وأشاعت

(١) انظر: عبدالرحمن بدوي: فلسفة العصور الوسطى. ص (١٩١).

(٢) انظر: المرجع السابق ص (١٩١، ١٩٢).

الفزع في رؤوسهم يميناً ويساراً، وتولتهم بعذاب أهونه السجن، وآخره الإعدام صنوفاً وألواناً [١].

ففي هذا العصر ظل الصراع بين الدين والفلسفة قائماً؛ لأن رجال الكهنوت مازالوا أصحاب سلطة في وقت اشتد فيه بأس العقل، ولم يستطع مفكرو ذلك العصر أن يبدعوا فلسفة جديدة مبتكرة، وظل التفكير الفلسفي عندهم نزاعاً إلى إنشاء العلم الطبيعي، ميالاً إلى ابتعاث المذاهب الفلسفية القديمة [٢].

ومن هنا كان "بيوري J.B. Bury" على حق حين رد في كتابه " تاريخ حرية الفكر " أكبر نصيب في تبعة هذا الاضطهاد الآثم إلى "السلطة الزمنية" التي تهيأت لرجال الأكليروس، ومكنتهم من اجتياح خصومهم، ومحاولة القضاء على آرائهم، وصدق " أندروديكسون هوايت A.D. White" حين عرض في كتابه " تاريخ النزاع بين اللاهوت والعلم " إلى رد النزاع بين الإيمان والعقل إلى اللاهوت المتعسف Dogmatic Theology، وليس إلى الدين السمح، فبرَّئت بهذا ساحة الدين من آثام غلاة المتعصبين من رجاله[٣].

رابعاً: علاقة الدين بالعقل في الفلسفة الحديثة:

١- القرن السابع عشر:

إن أكثر فلاسفة القرن السابع عشر قد جمعوا بين الإيمان بشريعة العقل، مع الإبقاء على قدسية الدين،

(١) انظر: قصة الصراع بين الدين والفلسفة: د/ توفيق الطويل. ص (٢٢. ٢٣).
(٢) انظر: المرجع نفسه. ص(١٨).
(٣) انظر: المرجع نفسه. ص (٢٠).

وحرمة تعاليمه، وكانت فرنسا في قرنها السابع عشر أصدق مثال للتعبير عن هذه الظاهرة.

فجدَّت الفلسفة الفرنسية في القرن السابع عشر في إزالة هذا التنافر، وحاولت أن تقيم التوازن بين مقتضيات الطبيعة وأوضاع الإيمان الديني، وجمعت بين التسليم الملحوظ بسلطان العقل، والإيمان العميق بوحي المسيحية، وكان هذا هو معقد الطرافة في فلسفة هذا القرن، حيث وضح فيها التزاوج بين الفلسفة والدين، وهذا واضح في فلسفة "ديكارت"، الذي أعلن باستبعاد كل سلطة غير سلطة العقل، وجعل الحدس المعيار الوحيد لكل حقيقة، ولكنه مع إيمانه بالعقل قد غلب صوت الوحي على صوته، وجعل العقيدة الدينية فوق متناوله؛ لأن حقائقها نزلت من السماء بمدد خارق للعادة، وشاع المذهب العقلي في فرنسا طولاً وعرضاً [٤].

وكذلك نجد التزاوج بين الدين والفلسفة في مذهب "مالبرانش" في فرنسا،و"اسبينوزا" في هولندا، و "جون لوك" في إنجلترا.

ولم يكن تلاقي العقل الفلسفي والإيمان الديني في هذا القرن عقيماً مجدبا؛ بل تكشف عن إبداع فلسفي خليق بكل إعجاب.

ففي الإمكان الجمع بين الإذعان لمنطق العقل، والإيمان العميق بوحي الدين، بل في وسع الإنسان

(١) انظر: د/توفيق الطويل: قصة الصراع بين الدين والفلسفة ص (١٨ ، ٢٣). ط-٣.

أن يكون فيلسوفاً مبدعاً، مع وفائه لعقيدته الدينية، وإيمانه بوحيها.

٢ – القرن الثامن عشر:

في القرن الثامن عشر شغل المذهب العقلي هوى المفكرين، فأوغلوا فيه إيغالاً انتهى بإخضاع الوحي الديني لمنطقه، وسرعان ما انتهى بهم هذا الغلو إلى الجهر بمعاداة الدين المنزَّل، والميل إلى تقويض الوحي، والسخرية من نفوذ رجال الأكليروس، وكان "فولتير" وغيره من رجال دائرة المعارف، "وهو لباخ" وغيره من غلاة الماديين في طليعة هذه الحركة، وكان طبيعياً أن تضيق السلطات الدينية بهذا الجموح، وتتصدى لمقاومته، ولكن نفوذها قد تضاءل، حتى عز عليها أن تنكل بهؤلاء الخصوم، وتلوث تاريخها بدمائهم [١].

وكانت إنجلترا تدين بالمذهب البروتستانتي، وقد واصل الفلاسفة فيها حملاتهم على السلطة – مع استثناء "هوبز"، الذي أراد أن ينقلها من رجال الدين إلى رجال السياسة – وكانوا طوال القرن السابع عشر والثامن عشر ينزعون إلى التسامي بالعقل وتمجيده على حساب السلطة الدينية، ولكنهم كانوا في حملاتهم على اللاهوت يتظاهرون بالاعتقاد في صدق الأفكار التي يتحرَّون هدمها، ويزعمون أن تأملاتهم العقلية لا تسيء إلى العقيدة الدينية، فكانوا ينظمون عقود المديح للدين، في نفس الوقت الذي

(٢) انظر: د/أحمد رمضان: الفلسفة الحديثة عرض ونقد ـ القرن الثامن عشر. مكتبة الإيمان بالمنصورة ـ ط ١ ـ ٢٠٠٠ م.

يضعون فيه آراء لا تجري على وفاقٍ مع تعاليمه، وقد آمن أكثرهم بالدين الطبيعي الذي يميزه قيام إله اهتدى إليه العقل بفطرته، من غير حاجة تدعو إلى الإيمان بالوحي المنزل، والرسل والكتب المقدسة [٢].

كانت هذه الدعوة الجارفة خليقة بأن تلقى من السلطات الدينية كل عَنَتٍ، ولكن نفوذها في ظل البروتستانية كان ضئيلاً، فلجأت إلى الحيلة، واعتصمت بشريعة العقل، وراحت تحارب خصومها بسلاحهم، ولم يجرؤ رجال الدين على أن يقولوا :إن العقيدة الدينية فوق متناول البحث العقلي. فلما اشتد بهم ضغط خصومهم، لجأوا إلى التوفيق بين النظر عند المعسكرين – وإلى مثل هذا التوفيق في مثل هذه الظروف، كان اتجاه رجال الدين في كل زمان ومكان، وأعلنوا أن مكتشفات العقل تؤيد الدين وتوطد دعائمه، وبدأت حركة تأويل النصوص المقدسة، حُمِّلت فيها الألفاظ مالا تطيق، كي تنسجم معاني النقل مع حقائق العقل الجديد، ولكن العقل حين انتقل إلى معسكر خصومه – من رجال الكهنوت – قد انقلب عليهم في عضد دعوتهم، إذ أثار الشقاق في معسكرهم، وشتت جموعهم، وجر الكثيرين منهم إلى مهاوى الهرطقة [٣].

(٣) انظر: د / توفيق الطويل: قصة الصراع بين الدين والفلسفة. ص (٢٤).

(٢) انظر: المرجع السابق ص(٢٣. ٢٤).

٣- القرن التاسع عشر:

في القرن التاسع عشر نجد نفوذ السلطات الدينية قد تضاءل كثيراً، وأن الفلسفة من ناحية أخرى قد لانت من ناحية الدين، وانصرفت عن مقاومة تعاليم الكنيسة، فعاشا إلى يومنا الراهن في صفاء قلما يبدو فيه غمام، وكانت فلسفة الإنجليز حسية تجريبية منذ نشأت، نفر أئمتها من التفكير الميتافيزيقي، حتى غزتها مثالية الألمان في القرن التاسع عشر، ورحبت الأوساط الدينية بهذه الفلسفة الجديدة؛ لأن النزاع بين الدين والفلسفة كان قد اشتد في انجلترا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعد أن ظهرت نظرية التطور ،ونشطت الروح المادية، فاستعان رجال اللاهوت بالمثالية الجديدة في محاربة اللاأدرية Agnosticism، ومقاومة النزعة الطبيعية Naturalism، ومهاجمة اللامبالاة بالدين؛ لأن فلسفة المثاليين الجدد من الإنجليز مالت إلى تأييد الدين والذود عن حماه [١].

ولكن موجة من النقد العقلي التاريخي للكتاب المقدس قد بدأت تظهر، ونضج البحث البيولوجي، وتقدم البحث الجيولوجي، فركب العلم رأسه في ذلك القرن، وأعلن تمرده على الكنيسة وتعاليمها، فناصبته العداء، وحشدت لمقاومة صلفه قواها، ولكن تياره كان غلاباً، فأصدر البابا "جريجوري السادس عشر"، منشوره الذي دعا فيه إلى مقاومة الحرية في مجال النظر العقلي. وعقَّب البابا "بيوس التاسع" بمنشوره عن خطايا العصر الحديث، في نزوعه إلى تحكيم العقل، ومنع الكنيسة من استئصال الآراء الهدامة، وأصدر مجلس الفاتيكان في عام ١٨٧٠م قراره بأن البابا معصوم من الخطأ، ولكن على غير جدوى ما كان من أمر هذه الجهود العابثة؛ لأن القافلة أخذت تسير، وقد وطَّنت عزمها على بلوغ غايتها، وظلَّت مواكب الأحرار تمضي في طريقها قدماً، يتتابع بعضها وراء بعض، وتخلَّف الرجعيون، وفاتهم الركب، فعسكروا حيث كانوا، وقد قل عددهم، واضمحل نفوذهم، وتضاءلت آمالهم، وباتوا يسرِّحون الطرف في مواكب العقل الظافر، فيرتد بصرهم خاسئاً وهو حسير [٢].

٤- القرن العشرون:

في القرن العشرين هادنت الفلسفة الدين، وانتقل ميدان النزاع إلى مجال العلم، حيث هادن العلم الدين إجمالاً، رغم استمرار الخلاف بين منهج كل منهما، وساد الصفاء جو العلاقات بينهما وبين الفلسفة.

لقد عرف القرن العشرون فلاسفة بدأوا حياتهم في حظيرة الكهنوت، وظلوا على ولاء للدين وتعاليمه، وقد وجدت – في بريطانيا خاصة – مؤسسات خيرية تشجع البحث الفلسفي الذي يتماشى مع حقائق الوحي، وتعاليم الدين.

وكانت المثالية الألمانية التي عرفت في القرن الماضي قد باعدت بين الفلسفة والواقع، وصرفتها

(١) انظر: د/أحمد رمضان : الإسلام ونظرية التطور ص (٢٣، ٢٤).

(٢) انظر: المرجع السابق ص (٢٥، ٢٦).

عن المادة، وحصرت همها في عالم المعقول، وهاجرت هذه المثالية إلى البلاد – وفي مقدمتها إنجلترا – الأخرى، ووجدت بينها أنصاراً ودعاة لمبادئها، ونفرت هذه الفلسفة من اتجاهات الحسيين الماديين الذين يتعذر قيام وفاق بينهم وبين رجال الدين [١].

وكان مرد هذا فيما يبدو إلى أن العلم نفسه قد انتقل من المادية المتطرفة التي عرفت عنه في القرن الماضي إلى نوع من الروحية المسرفة في القرن العشرين، حيث أخذ العلماء يفسرون المادة تفسيراً جديداً قارب بينهم وبين الروحيين، فاعتبروا المادة شحنات كهربائية، أو إشعاعات موجبة.. واعتبروا العلوم رموزاً فسروا بها الوجود، وكان هذا كله كفيلاً بأن يفضى بأصحابه إلى تفسير العالم تفسيراً مثالياً عقلياً، ومن هنا وصف بعضهم العالم بأنه نور، ووصفه غيرهم بأنه فكر... إلى آخر ما ذهبوا إليه في هذا الصدد [٢].

وإلى جانب هذا الاتجاه في الفلسفة وجد في القرنين الماضي والحاضر اتجاهات فلسفية خاصمت الدين، واستخفت باللاهوت، وحطت من شأن رجاله. كان أظهرها في فرنسا مذهب الوضعية Positivism، وفي إنجلترا مذهب الحسيين والتجريبيين Sensualism and Empericism، وفي أمريكا الفلسفة العملية Pragmatism، وفي النمسا – وانجلترا وأمريكا – اتجاه الوضعية المنطقية Logical Postivism. وكلها مذاهب حسية مادية، تنكر ما وراء العالم المحسوس، وتستخف بالأديان، وتهاجم اللاهوت ورجاله، أو تسقطهم من حسابها [٣].

فهذه الفلسفات انصرفت عن عالم الغيب إلى عالم الشهادة، واستخفت بدنيا الروح، وحصرت اهتمامها بدنيا المادة، وهاجمت الفلسفات الروحية والعقلية في كل صورها، كما فعلت الوضعية المنطقية المعاصرة في النمسا وأمريكا وإنجلترا بوجه خاص، وقريب من هذا يقال بشيء من التجاوز في فلسفة البرجماتية.

وإذا كانت الفلسفة العملية قد سلمت بالأديان، فإن مبررات التسليم بها عملية لا ترضي أحداً من رجال الأديان [٤].

المبحث الثالث : الإسلام والعقل

نجد بأن الإسلام قدر العقل واحترمه، ولم يلغه أو يحصره، حيث أنعم الله تعالى على الإنسان بنعمتي: العقل والوحي، فمجرد نزول الوحي فيه تكريم للعقل؛ لأن أول ما نزل منه " اقرأ ".

وكلمة " اقرأ " خطاب للعقل، وهذا شرف للإنسان؛ بل هو إبراز لمدى تكريم الله لهذا العقل، ويزداد هذا التكريم فيضاً إيمانياً ووحياً إلهياً عندما يقول الملك

---

(١) انظر: د/ عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى. ص (٢٨٨).

(٢) انظر: د / توفيق الطويل: قصة الصراع بين الدين والفلسفة. ص(٢٩٣).

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه . ص (٢٩٤،٢٥٣).

(٤) راجع : د/أحمد رمضان : في : البراجماتية وموقف الإسلام منها، والإسلام والتحليل النفسي عند فرويد، وأثر الماركسية على العلوم والفنون وموقف الإسلام منها ص (   ) .

جبريل عليه السلام للنبي ﷺ : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾(١) وجاء الكرم واضحاً في قوله: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٣) ، فهو الأكرم ،لأنه منح الإنسان عقلاً وأنزل عليه وحياً.

– وللعقل منزلة كبيرة في الإسلام، حيث جعله الله تعالى نوراً يهدي به الناس، وطالبهم باستعماله والتحاكم إليه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور:٣٥]

ويسمى العلم المستفاد منه روحاً ووحياً فقال تعالى: ﴿ وكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى :٥٢) وقوله تعالى : ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام :١٢٢)

والعقل نور، جعله الله للدين أصلاً، وللدنيا عماداً، به يميز الحق من الباطل، وعليه يقوم النجاح ويكون الفلاح.

فالرسول ﷺ نظر إلى العقل نظرة كلها تعظيم وإجلال، فقد رأى فيه أنه أصل الدين وأساسه، وأن لا دين لمن لا عقل له.

وأمر بالتواصي بالعقل والرجوع إليه، ففيه النجاة وفيه الأمان.

ما تم دين أحد إلا بالعقل. وما عُبِدَ الله بشيء أحب اليه من العقل، وبمثل العقل، فهو دعامة الإنسان، وعلى قدر عقله تحسن سيرته، وتكون عبادته، ويكون الاقتراب من الكمال ويكون الجزاء.

روى لقمان بن أبي عامر عن أبي الدرداء أن رسول صلى الله عليه وسلم قال: "يا عويمر ازدد عقلاً تزدد من ربك قرباً..." (١).

وروى أنس بن مالك قال: أثني على رجل عند رسول الله بخير فقال: كيف عقله؟.. قالوا: يا رسول الله، إن من عبادته... إن من خلقه... إن من فضله... إن من أدبه... فقال: كيف عقله؟ قالوا: يا رسول الله نثني عليه بالعبادة وتسألنا عن عقله؟ فقال رسول الله: إن الأحمق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر، وإنما يقرب الناس من ربهم بالزُّلف على قدر عقولهم(٢).

---

(١) أبو محمد الحارث بن محمد بن داهر التميمي البغدادي. بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث. باب ما جاء في العقل. جـ ٢. ص (٨٠٨). مركز خدمة السنة والسيرة النبوية ـ المدينة المنورة. ط ١ ـ ١٩٩٢ م.

(٢) أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي: أدب الدنيا والدين. باب فضل العقل. ج. ص (٢٤/١). دار مكتبة الحياة. (د. ت).

وقال عليه السلام: "لكل شيء دعامة، ودعامة المؤمن عقله، فبقدر عقله تكون عبادته " [١].

ويرى الرسول ﷺ أن الحياء والدين من مستلزمات العقل، فلا يكونان إلا مع العقل، ولا يسيران إلا في كنفه، وفي الأثر: "إن جبريل أتى آدم – عليه السلام – فقال له: إني أتيتك بثلاث، فاختر واحدة منها. قال: وما هي يا جبريل؟ قال: العقل والدين والحياء. قال قد اخترت العقل. فخرج جبريل إلى الحياء والدين فقال: ارجعا، فقد اختار عليكما العقل. فقالا: أُمرنا أن نكون مع العقل حيث كان" [٢].

– وبالعقل يتفاضل الناس ويتقربون به إلى الله تعالى، وعلى كماله يتم الدين ويستقيم. قال الرسولﷺ : " أفضل الناس أعقل الناس " [٣].

وقال أيضاً: " ما اكتسب رجل مثل عقل يهدي صاحبه إلى هدى، ويرده عن ردى، وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله" [٤].

وقالﷺ : "أتمَكم عقلاً أشدَكم لله خوفاً وأحسنكم فيما أمركم به ونهى عنه".

وعن عائشة قالت: "قلت يا رسول الله بم يتفاضل الناس في الدنيا؟ قال بالعقل. قلت وفي الآخرة. قال: بالعقل. قلت: أليس إنما يجزون بأعمالهم؟ فقال رسول الله: يا عائشة: وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله عز وجل من العقل؟ فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم، وبقدر ما عملوا يجزون" [٥].

وحسب العقل أن يجعل الإنسان مُقبلاً على شأنه، عارفاً بزمانه، وحافظاً للسانه، فهو أشرف الأحساب، لا يتم حسن الخلق إلا به، ولا يكون السؤدد إلا عليه. قال عليه السلام: "إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم، ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله" [٦].

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال لتميم الداري: "ما السؤدد فيكم؟ قال: العقل. قال صدقت. سألت رسول الله ﷺ كما سألتكم، فقال كما قلت، ثم قال: سألت جبريل: ما السؤدد؟ فقال: العقل" [٧].

والعقل آلة المؤمن ومطيته، وغاية العباد، وداعي العابدين، وبضاعة المجتهدين.

كثرت المسائل يوماً على رسول الله ﷺ فقال: (يا أيها الناس؛ إن لكل شيء مطية، ومطية المرء العقل، وأحسنكم دلالة ومعرفة بالحق أفضلكم عقلاً).

وعن أبي عباس رضي الله عنه قال: قال الرسول ﷺ : " لكل شيء آلة ودعامة، وإن آلة المؤمن العقل، ولكل شيء مطية، ومطية المرء العقل، ولكل شيء دعامة، ودعامة الدين العقل، ولكل قوم غاية، وغاية العباد العقل، ولكل قوم داع، وداعي العابدين العقل،

---

(١) انظر: المرجع نفسه. ج. ص (٨١٣/٢).
(٢) محمد بن حبان البُستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء. دار الكتب العلمية - بيروت.
(٣) أبو محمد الحارث بن محمد بن داهر التميمي البغدادي. بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث. باب ما جاء في العقل ج. ص(٨٠١/٢).
(٤) انظر: المرجع السابق. ج . ص (٨٠١/٢).
(٥) الإمام العجلوني. كشف الخفاء ومزيل الإلباس. باب الهمزة مع النون. ج. ص (٢٧٠/١). المكتبة العصرية.
(٦) أبو محمد الحارث بن محمد بن داهر التميمي البغدادي. بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث. باب ما جاء في العقل. ج . ص (٨١١/٢).
(٧) انظر: المرجع السابق باب ما جاء في العقل. ج . ص (٨١٢/٢).

ولكل تاجر بضاعة، وبضاعة المجتهدين العقل، ولكل أهل بيت قيم، وقيم بيوت الصديقين العقل، ولكل خراب عمارة، وعمارة الآخرة العقل، ولكل امرئ عقب ينسب إليه ويذكر به، وعقب الصديقين الذين ينسبون إليه ويذكرون به العقل، ولكل سفر فسطاط، وفسطاط المؤمنين العقل[١].

والقرآن الكريم دعانا إلى التعقل والتدبر والتفكر والتأمل والنظر.. ووجه المسلمين إلى هذا في مواطن عديدة، منها قوله تعالى:

﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾.

سورة محمد الآية٢٤. وقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لعلكم تَعْقِلُون﴾ (البقرة :٢٤٢) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف:٢) وكذلك يحصر القرآن فهم الأمثال المضروبة على من كان له عقل يعي، فيقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾. (العنكبوت:٤٣). كما يحصر تفصيل الآيات الكونية ويقصر فهمها على ذوي العقول فيقول تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الروم:٢٨)

واستعمال النظر في الكون، والتدبر في نظامه المحكم، وتصريف الأمور فيه إنما هو وقف على العقلا ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَ الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَامِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْض لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:١٦٤) .

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّار﴾ (آل عمران : ١٩٠-١٩١)

وقوله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُوَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج:٤٦)

وكذلك نجد الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين دعوا إلى إعمال العقل والفهم فيما لم يرد فيه نص، ورجحوا القياس عند ذلك. فقد ورد في كتاب عمر إلى أبي موسى الأشعري ما يلي: ".. ولا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك، وهُديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأشباه والأمثال، فقس الأمور عند

(١) انظر: المرجع السابق باب ما جاء في العقل. ج. ص (٨٠٦/٢).

ذلك، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق..." [١].

وكان عمر رضي الله عنه أكثر الصحابة استعمالاً للرأي، وكان يجتهد في معرفة المصلحة التي لأجلها كانت الآية أو الحديث.

ولم يقف الصحابة عند ما وردت به النصوص؛ بل أخذوا بالقياس، وكذلك سار على غرارهم التابعون والأئمة من بعدهم.

وكذلك نادت مدرسة الإمام أحمد بن حنبل بمبدأ اعتبار المصلحة عند عدم النصوص الدينية.

وقول الإمام الشاطبي في الموافقات: "وما القياس والاجتهاد إلا إعمال العقل، وإعطاؤه الحرية، والرجوع اليه، والتوصل إلى المعقول بالنظر والاستدلال [٢].

وجاء في "المقابسات" لأبى حيان التوحيدي في فضيلة العقل: "إن العقل متاع، كما أن الحياة وعاء، والعافية استعمال، فإن الإنسان بعقله يصبر على الفقر، وبعقله يجتلب الغنى، وبعافيته يبلغ الغاية، ويكتسب السعادة، والعقل في جميع أحواله فيتصرف بثمرة الراحة مرة، وبالصبر مرة، ويريه الحكمة فيما فشا وسر، ويؤديه إلى السعادة في كل ما أقبل وأدبر؛ لأن العقل متى حل شخصاً أضاءه وأناره، ومتى فارق شخصاً كدره وأباره...".

وقال بعض العلماء: ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة، وركب البهائم من شهوة بلا عقل، وركب ابن آدم من كليهما، فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم .

وبعد بيان منزلة العقل في الإسلام، وتقديره له، واحترامه، وإعلاء شأنه.. نجد الإسلام يقوم على العلم والعقل، فالله تعالى ما أرسل نبياً إلى عباده وآتاه كتابه وشريعته، إلا وآتاه معهما شيئاً سماه (الحكمة)؛ ليعلم عباده الكتاب ويجعلهم يتبعونه على بصيرة من الأمر. قال تعالى:

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾. (النساء: ٥٤) وقال تعالى:

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . (البقرة:١٢٩). وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (الزخرف:٦٣).

فما هذه الحكمة يا ترى؟ إنها نور العلم والبصيرة، وملكة التدبر والتأمل في الكتاب، والفقه في الدين، ومعرفة أصوله وأسراره، فكلما جاء من الله نبي، علَّم أتباعه هذه الحكمة مع تعليمهم الكتاب، وبها ظلوا قائمين على الصراط المستقيم [١].

---

(١) الإمام ابن عبد البر: الاستذكار باب ما جاء في الشهادات. ج. ص (١٠٣/٧). دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ٢٠٠٠ م.
(٢) انظر: قدري حافظ طوقان: مقام العقل عند العرب. دار المعارف بمصر. ص (٣٦. ٣٩).

ولأجل ذلك أمر الله سبحانه وتعالى ورسوله المسلمين بالتفقه في الدين، وفهم هدايته وأحكامه بتأكيد بالغ فقال

تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة:١٢٢). وقال تعالى:

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾. (ص:٢٩)

وقال تعالى:

﴿وَهُوَالَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾.

(الأنعام: ٩٨)

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ . (آل عمران:١٦٤)

وقال تعالى:

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُوَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗوَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾. (البقرة:٢٦٩)

وقد وردت في هذا الباب أحاديث كثيرة عن النبيﷺ، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه، ولا علم ليس فيه تفهم، ولا قراءة ليس فيها تدبر "، وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال: " من يرد الله به خيراً يفقه في الدين"، وفي حديث ثالث قال ﷺ: " أفضل الناس أفضلهم عملاً إذا فقهوا في دينهم" [(١)].

هذا الدين يتوقف أمره كله على الفهم الصحيح، والعلم السديد لكتابه، فإذا ما بقيت في الناس (الحكمة) ظلوا يتدبرون في الآيات الإلهية، ويسلكون على وجه من البصيرة ذلك الصراط المستقيم الذي أرشدهم إليه الأنبياء، وما استطاع أحد أن يضلهم عنه [(٢)].

هذا الدين يقوم على العلم والعقل، فهو يخاطب العقل في صميمه، ويهدف إلى إخراج الإنسان من ظلمات الجهل إلى نور العلم؛ ليعرف مكانته الحقيقية في الكون، ويدرك الجانب الحقيقي لعلاقته بالموجودات، ويستعين – على هدى من العلم والبصيرة – بكل ما له من الطاقات الظاهرة والكامنة، والوسائل المادية والروحية لبلوغ الغاية الحقيقية لحياته، وهي القيام بالخدمة التي أوجبها الله عليه حينما جعله خليفته في الدنيا، وابتغاء مرضاة الله في الآخرة كنتيجة محتومة للقيام بهذه الخدمة على أتم وجه.

هذا الدين لا يعطل أي قوة من قوى الإنسان؛ بل يرشده لصرفها إلى طريق مستقيم، ولا يكبت شهوة من شهواته بل يضع لها حداً مشروعاً معقولاً، ولا يحول دون تحقيق أفكاره في الفضاء الأعلى، ولا يعوق قواه العلمية عن اكتشاف الوسائل المادية، والاستمتاع به، بل يوجه هذا الاكتشاف والاستمتاع

(١) انظر: المرجع نفسه. ص (١٦).
(٢) انظر: المرجع نفسه. ص (١٣).

إلى الأغراض الصحيحة النزيهة، فكأنه بكل هذا يشغل كل إنسان فيما فطر عليه من الكفاءة، سواء أكان بطبعه ميالاً إلى المادية أم إلى الروحية، ويريد أن يحليه من العلم والتعقل بما يعينه على أن يتجنب طريق الإفراط والتفريط، ويسلك طريق الاعتدال والقصد، ويعرف واجباته في الدنيا كإنسان، ويقوم بها على أحسن الوجوه، ويشعر بما عليه من الحقوق لله وللخلق ولنفسه، ويؤديها خير الأداء، ولا يغرق في الجوانب الروحية لحد أن يتخذ المكاشفات الروحية، واللذات الباطنة هي المحور لمساعيه وجهوده، ولا ينصرف إلى المادية، حيث يجعل كل همه وجهده وكفاحه مقصوراً على اللذات الحسية، والشهوات النفسية، والسعادات المادية.

وإذا كان الدين يقوم على العلم والعقل، فلا يمكن أن يُتَّبع اتباعاً صحيحاً إلا بالعلم والعقل، فمن كان لا يعرف روح هذا الدين، ولا يدرك حكمه وأسراره، ولا يفهم مبادئه، ولا يتأمل في توجيهاته، فمن المستحيل له قطعاً أن يسلك بالاستقامة ذلك الطريق الذي يرشد إليه هذا الدين، ويدعو إليه الناس. ولا قيمة لعقيدته فيه ما لم تتجاوز إقراره باللسان إلى سويداء قلبه، وتستولي على فكره وشعوره، ولا وزن لعمله بأحكامه ما لم يتشبع بروح المعرفة والبصيرة، ولا عبرة باتباعه لقانونه ما لم تسيطر روحه على ذهنه، مع سيطرته على جوارحه [١].

(١) انظر: المرجع السابق ص (١٠. ١١).

وفي مجال الغيبيات، وكل ثوابت الدين، نجد الدين هادياً للعقل في كل مسائل العقيدة؛ كالإيمان بالله والرسل والملائكة والجنة والنار، وما في السماوات وما تحت الأرض.. وكل ما وراء الطبيعة.

إن العقل هو الذي يفكر، والدين القائد الذي يوجه الشرع كافٍ بتحديد معاني الخير والشر، والفضيلة والرذيلة؛ بل إنه يهذب العقل، وذلك بأمره له بالالتزام بالأخلاق الحسنة. من هنا تتضح قيمة الدين بالنسبة للعقل [٢] ، ولو ترك الأمر في العقائد والغيبيات والأخلاقيات للعقل لاختلف الناس، ولتفاوتت الآراء، ولكثرت المذاهب التي تؤدي إلى الهلاك والعياذ بالله. يقول تعالى ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران : ١٠١) [٣].

يقول الدكتور عبد الحليم محمود . رحمه الله . في مجال قيادة الدين للعقل " إن الإنسان إنما سبيله: أن تفيده الملل بالوحي ما شأنه ألا يدركه بعقله، وما يخور عقله عنه، وإلا فلا معنى للوحي، ولا فائدة إذا كان إنما يفيد الإنسان ما كان يعلمه، وما يمكن إذا تأمله أن يدركه بعقله، ولو كان كذلك لَوُكِل الناس إلى عقولهم، ولما كانت بهم حاجة إلى نبوة ولا إلى وحي، لكن لم يفعل بهم ذلك، فلذلك ينبغي أن يكون ما تفيده الملل من العلوم، ما ليس في طاقة عقولنا إدراكه" [٤].

(٢) من هنا يبين خطأ "البراهمة" في الاكتفاء بالعقل عن الشرع.
(٣) انظر: محمد الصايم: قيمة العقل في الإسلام ص (٣٩. ٤٠).
(١) انظر: د/ عبد الحليم محمود: الإسلام والعقل. دار المعارف. ص (٢٧).

من هذا كله يتضح أن الدين قائد للعقل، ولو كان العقل يُكتفى به لم يكن للوحي فائدة ولا غناء، والإسلام دين العقل والملكات والمواهب العقلية والفكرية والنفسية، وهو أحياناً يتدخل في صميم "العملية التفكيرية"، فيرسم طريقتها ومنهجها. إن الإسلام يحتضن العقل، ويجعله مناط التكليف والمسؤولية، فبين الدين والعقل والتفكير ألفة وانسجام. والعقل في الإسلام مصدر من مصادر المعرفة، وليس هو مصدر المعرفة الوحيد، وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه العقليون باعتمادهم على العقل المجرد، بعيدًا عن وحي السماء، عند اليونان، وفي عصر التنوير، حيث جعلوا العقل هو المصدر الوحيد للمعرفة، ولكن التنويريين معذورون؛ لأنهم لم يجدوا في الكنيسة ديناً صحيحاً يعترف بدور العقل، فقابلوا غُلواً بغلو، وكلاهما: رجال الكنيسة والعقليون كانوا بعيدين عن الصواب [١].

وبناءً على ما سبق نجد الإسلام قدر العقل واحترمه، ورفع من شأنه، وجعله مناط التكليف والمسؤولية، وأداة الفهم والإدراك والتأمل، وأشارت إليه آيات عديدة بصيغ متعددة، ليعبر عن الوظائف العقلية التي أراد الله للعقل الإنساني أن يمارسها في هذا الوجود.

وبهذا نجد أن الإسلام احتضن العقل، ولم يلغه أو يحصره، فبينه وبين العقل والتفكير الألفة والانسجام. ونظراً لأن للعقل طموحات وشطحات تؤدي إلى المهالك، فلذلك جعله يعتصم بالوحي، ويسترشد به، وعلى هذا فلا يوجد بينهما صراع، ولم يأت الإسلام بشيء يصدم العقل فيما للعقل فيه مجال. أما الصراع الذي حدث في القرون الوسطى، وعصر النهضة الأوروبية، فسببه ضياع الإنجيل الحقيقي، وبإضاعة الإنجيل الحقيقي ضاعت من يد القوم " أمانة الوحي "، ففقدوا العاصم من الخطأ، والمنقذ من الضلال، ولو قدِّر أن إنجيل السيد المسيح كان موجوداً بيد القوم، مصوناً من التحريف، لتغير وجه التاريخ، ولما وقعت الكنيسة في تلك الأخطاء الجسيمة المتوارثة التي حملتها الأجيال إلى القرن السابع عشر وما تلاه من عصور الفتن والاضطرابات، ولما وقع الشقاق بينهما وبين العقليين والوضعيين، ولكن لما أضاع القوم أمانة الوحي وصنعوا عقائدهم بأهوائهم، أتى الدين المسيحي بما ينكره العقل والعلم معاً، وكان النزاع بينه وبين عدويه اللدودين: العقل والعلم على أشده. وهذه حقيقة لها أسبابها وأصولها التي لا تنكر، فلما كان الأمر كذلك حق للعقل أن يتمرد، وحق للعلم أن يثور؛ لأن كلاً من العقل والعلم لم يواجها ديناً، وإنما واجها تصورات بشرية، سميت ظلماً وعدوانًا باسم الدين، ولو كان الدين الذي ساد أوروبا في تلك العصور غير دين الكنيسة، لما وقع صدام بينه وبين العقل والعلم؛ لأن بين الدين الصحيح وبين العقل والعلم ألفة وتآخياً وانسجاماً لا تنافر وتعاد وافتراق. ولو فرضنا أن الإسلام هو الذي كان يسود

---

(٢) انظر: د/عبدالعظيم المطعني: الإسلام في مواجهة الأيديولجيات المعاصرة. ص (٩١ ، ٩٢).

أوروبا في تلك العصور لما حدث ذلك الانشطار الخطير في الفكر والعقيدة معاً[(١)].

الخلاصة بإجمال

نخلص مما سبق إلى مايلي :

أولاً: إن الإسلام لا يعادي العقل، وإنما يقدر شأنه، ويدعو إلى إعماله ويجعله مناط المسؤولية والتكليف.

ثانياً: ليس للعقل القدرة المطلقة على المعرفة، وعليه، ليأمن الخطأ ، أن يعتصم بالوحي، فهو مصدر من مصادر المعرفة عند المسلمين، وليس هو المصدر الوحيد للمعرفة.

ثالثاً: إن الكنيسة أخطأت حين اعتدت على حرمة العقل، وصادرت سلطانه، وحرمته من أداء رسالته، وإن عقلاء عصر التنوير أخطؤوا عندما غالوا في قيمة العقل.

ولو كانت الكنيسة،في إبان محنتها، انتهجت منهج الإسلام إزاء العقل، لأصلحت نفسها من داخلها، ولاستأثرت بولاء الناس لها ولاء يقوم على الوعي وحسن الإدراك. ولما تمرد عليها العقليون ولا غير العقليين، ولكنها جمدت على فكرها وعقائدها، فتحركت كل القوى ضدها.

المصادر والمراجع

١) القرآن الكريم.

٢) كتب السنة النبوية المطهرة.

٣) أدب الدنيا والدين. أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي. دار مكتبة الحياة. (د. ت).

٤)الاستذكار، الإمام ابن عبد البر. دار الكتب العلمية – بيروت – ط ١ – ٢٠٠٠م

٥)الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة. أبو الأعلى المودودي. تعريب : خليل أحمد الحامدي . (د.ت)

٦)الإسلام في مواجهة الأيديولجيات المعاصرة. د / عبدالعظيم المطعني. مكتبة وهبة . ط١. ١٩٨٧م.

٧) الإسلام والعقل. د/ عبد الحليم محمود. دار المعارف.

٨) الإسلام ونظرية التطور. د/ أحمد رمضان. الدار الإسلامية . ٢٠١٦م

٩)البراجماتية وموقف الإسلام منها. د/ أحمد رمضان. ط١-٢٠١٦م .

١٠) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث. أبو محمد الحارث بن محمد بن داهر التميمي البغدادي. مركز خدمة السنة والسيرة النبوية – المدينة المنورة. ط ١ – ١٩٩٢ م.

١١)تاج العروس. الزبيدي. دار الكتب العلمية . بيروت – لبنان .

١٢)تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى.د/ عبد المنعم ماجد. مكتبة الأنجلو المصرية . ط٥. ١٩٨٦م.

١٣)التفكير فريضة إسلامية. عباس العقاد. دار الكتاب العربي. بيروت ١٩٦٩.

(١) انظر: د/أحمد رمضان : العلم والدين بين الإسلام والفكر الغربي - دراسة مقارنة. والمرجع السابق. ص(٨٥ – ٨٩).

١٤)روضة العقلاء ونزهة الفضلاء. محمد بن حبان البُستي. دار الكتب العلمية – بيروت.
١٥)شرف العقل وماهيته. الحارث بن أسد المحاسبي وأبي حامد محمد بن محمد الغزالي. تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت –
١٦)الصحاح. الجوهري. دار العلم للملايين. بيروت. ١٩٨٤م.
١٧)عالم الفكر الفلسفي في العصور الوسطى – فلسفة إسلامية ومسيحية. د/عبده فراج. مط١. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة ١٣٨٩هـ – ١٩٦٩م.
١٨)العلم والدين بين الإسلام والفكر الغربي – دراسة مقارنة. د/أحمد رمضان.
١٩)فلسفة العصور الوسطى. عبد الرحمن بدوي. ط٣. وكالة المطبوعات الكويت. دار القلم – بيروت – لبنان. ١٩٧٩م.
٢٠)الفلسفة الحديثة عرض ونقد. د/ أحمد رمضان. مكتبة الإيمان بالمنصورة – ط ١ – ٢٠٠٠ م.
٢١)القاموس المحيط. الفيروزآبادي. مؤسسة الحلبي وشركاءه للنشر والتوزيع . القاهرة . (د.ت) .
٢٢)قصة الصراع بين الدين والفلسفة. د/توفيق الطويل. دار النهضة العربية . ط٣. القاهرة ١٩٧٩م.
٢٣)قيمة العقل في الإسلام. محمد الصايم. مكتبة الزهراء .
٢٤)كشف الخفاء ومزيل الإلباس. الإمام العجلوني. جـ ١. المكتبة العصرية.
٢٥) لسان العرب ، ابن منظور . ط .خياط
٢٦)المسائل في أعمال القلوب والجوارح والمكاسب والعقل. الحارث المحاسبي. تحقيق: عبدالقادر أحمد عطا. عالم الكتب.
لبنان.
٢٧)مشكاة الأنوار. الإمام الغزالي. القاهرة ١٩٦٤م.
٢٨)المعجم الفلسفي. د/ جميل صليبا. دار الكتاب اللبناني . بيروت . ١٩٨٢م. ٣١
٢٩)مقام العقل عند العرب. قدري حافظ طوقان. دار المعارف بمصر. ١٩٦٠م.ض
٣٠)مقدمة كتاب الكون والفساد لأرسطو. برتلمي سانت هيلير. ترجمة: أحمد لطفي السيد.
٣١)المواقف في علم الكلام . الإيجي . ببروت

Religion Mind

Saeed Ahmed Alafandi

Religion and Mind Does religion meets with mind or they are opposites that cannot be met? How was the relationship between them throughout the ages? The research in our hands attempts to answer these questions and to track the history of the relationship that has been experienced in situations of conflict, strife, conflict, truce and periods of convergence and harmony. Before reviewing the history of the relationship between faith and mind, we must define the concept of mind. The mind is a trait entrusted with moral reasoning. to be mind , means control himself out of vagary .. while the most comprehensive definition of the mind at philosophers: "it is the sum of psychological functions related to acquiring knowledge, such as perception, retrieving, remembering, imagining, governance and reasoning.

As for the relationship of the mind to religion historically has experienced cases of tides and engagement and convergence. In Greek civilization we found freedom of mind from the pressure of religious belief and the influence of its men, while in the Middle Ages (the era of saints) there was no conflict between mind and faith, but there was a complete harmony between them.

Religious persecution began in Europe when Romanian politics came out of its law. During the first two centuries there was persecution of followers of the new religion. The campaigns of abuse did not end until Caesars adopted the new religion. The Church changed its behavior after the conquest of power, as it tightened its grip on skeptics, racists and atheists (the Augustine Principles). It was reported that the vigilance in the mental stream was reversed by his opponents of the priesthood. We witnessed bloody conflicts in which many of the pioneers of modern thought were executed. In the thirteenth century, the gap between mind and theology began to widen and conflicts continued and the complete separation between them began by rejecting all revelations because of their lack of mental proof. The conflict between faith and reason continued in later centuries until scientific theories emerged that proved the faults of ancient religious concepts about the world, such as the theory of Galle, Newton, Darwin, Kepler, Laplace and others. The power of the priesthood was removed politically, and religion was excluded from public affairs.